الكون والإنسان في اكتشاف الفضاء

بقلم عبد الدين وحيد

« كنا نظنها الكون كله .. وكنا نظن انفسنا فوق ظهرها كل شيء في هذا الكون . واذا بنا وبها شيء ضئيل في تكوينه الضخم المعقد . لسنا وحدنا في الكون . أننا قطرة في محيط هادر متلاطم » .

(لست وحدك ـ ص ٤٢٥)

« اننا لم نعدم الامل في الارض .. الناس ما زالوا طيبين .. على كل ما فيهم من انانية .. ومكر .. وحقد . ينضوي في نفوسهم خيط من التضحية ... وانكار الذات والمودة . . والحنان . ان نفوس الناس لم تعد ارضا قاسية صماء .. لا ينبت فيها الخير .. ان بها قابلية خصبة لانبات الحب ... والخير .. الا يمنحنا هذا املا ؟ »

(عبدالراضي في « لست وحدك » ص ٤٥٠)

ـ ١ ـ

اغلب الظن ان عدم انضمام يوسف السباعي او انغماسه في حزب سياسي او مذهب ادبي او تيار عقائدي ، موقف لم يحدث مصادفة بل هو محصلة لكل ما يدخل في تكوينه ، ويرجع الى ما يرى من ضرورة الانفتاح على كل الاشياء . فالانغلاق على شيء بعينه مهما بلغ ، يفسد الرؤية الى ما يزخر به غيره . كما انه يحمل من ناحية اخرى لونا من التبعية مهما بدت علاقتها بالفكر ، تنتقص قليلا او كثيرا من حرية صاحبها . زيادة الى ما يفرض من تعصب . ومن هنا نفهم ايضا لماذا عادى ما أطلق عليه يوما ، الادب الاسود . الذي لا يلتقط الا اسوأ ما في المجتمع بحجة الفن في سبيل الحياة . ومن هذا الموقف كذلك ايمان السباعي بان الانسان على الارض ليس منبت الصلة بالانسان وارتباطه بالسماء . فنحن اذن نرفض النظرة الجزئية القاصرة على زاوية واحدة ، لانها اضيق من ان تلتمس رحابة او شمولا . ان الانسان ليس هذه الاعضاء التي تشكل الجسد ، بل هو ايضا الروح التي تجعل هذه الاعضاء تتماسك وتطل من المآقي وتنتفض بها الجوارح.

الانسان اذن مزاج هذا التركيب الذي يتصل بتراب الارض وشفافية السماء . وكما انه ليس الكائن الاوحد الذي خلق على هذه الارض، فهذه الارض كذلك ليست الكوكب الاوحد الذي يضطرب في الكون. فحوله البلايين من الكواكب والاقمار والشموس ، وبالتالي فهو ليس قطب الوجود .. بل قطرة في بحر هذا الوجود .

ومن الطريف ان هذا الموضوع ـ الفضاء . الكون . السماء ـ كان يناوش فناننا منذ وقت مبكر في حياته ويتدخل في ايامه . فمنذ صباه وهو يدرك بصورة ما وحدة الانسان على الارض ، بالرغم من كل الناس الذين يتحلقون حوله ويملأون الدنيا . لذا فهو يتطلع الى السماء ، لا يلتمس العون فحسب ،بل يبحث فيها عما يدخل منها في تكوين الارض والبشر . فلنتحسس حديث يوسف السباعي مع نفسه .. « .. لم يتغير في باطنه شيء .. حتى لاكاد استكثر عليه كلمة الرجل، واقول ذات الصبي . شيء حزين في باطنه ، يملؤه بالحيرة والوحدة، والغربة في هذه الارض . شيء يجذبه نحو السماء والفراغ .. والافق .. والمحيط الواسع . شيء يملؤه باحساس .. حمال اثقال على ظهر الارض .. ينطلق بلا وعي .. وحمله على كتفيه ، وكأنه سعيد . وعندما يجلس برهة .. ليستر انفاسه ، ويحملق في السماء والنجوم .. وفي الفراغ العريض لا يملك الا ان يسأل نفسه ، وبعد .. ووسط السكون والوحشة ، لا يكاد يسمع .. حتى صدى صوته » (ايام من عمري ـ ص ٣٨٨ ـ ٣٨٩) .

قضية الانسان والوجود اذن ، احد الاهتمامات المعروفة لقصة يوسف السباعي . فلصاحبها كما رأينا هوى قديم للجوانب غير المادية في الحياة البشرية.نلتمس خيوطه في اعماله المنفردةاوالمتجمعة وفي قصصه الطويلة او القصيرة على حد سواء . كما نجد في « من العالم المجهول » و« السقامات » على سبيل المثال .. ففي المجموعةالاولى يعالج فناننا قضية الروح ، وفي الرواية يتناول مشكلة الموت .ثم تأتي « لست وحدك » التي تتخذ اطارها رحلة فضائية . ويبلور مضمونها مقدمتها التي يخاطب فيها الانسان بقوله : هذه ارضك الكبرى ودنياك الحافلة .. كرة ضئيلة في بحر الكون المتلاطم ..ومضة من ملايين الومضات في السماء الفسيحة لست في الكون وحدك .. انما الله احد ... الله الصمد .

ـ ٢ ـ

ورحلة السباعي الفضائية تلفتنا الى ما يحاول الادب في قصصه ومسرحياته من متابعة هذه الاعمال التي اتخذت الفضاء مسرحا لها بشكل ما . ونلاحظ ان هذه المؤلفات القصصية والمسرحية تعكس اشياء ثلاثة هامة . اولها تقدم علم الفضاء ذاته . الثاني مستوى جديةاصحاب

هذه الكتابات في تناول اعمال الفضاء الذي يبلوره ، باعث الرحلة الفضائية ، واختيار شخوصها . الثالث ، درجة الالتفات الى الابحاث الفضائية ويعكسه اهتمام المؤلف بدراسة منجزات العلم في هذا الجانب . واغلب الظن ان الاقناع بعملية الايهام بالاجواء الغريبة الشاذة مثل تجسيد عالم الفضاء ، من اصعب الاشياء بالنسبة للقاص والمتلقن معا . فهو للاول تحطيم للتوازن التقليدي بين الواقع والخيال ، فواقعه هنا او تجاربه منتفية الوجود لا اثر لها مما يترك العبء كله على عنصر الخيال ينفث الحياة في العالم الغريب . اما المتلقي فعملية الايهام بالنسبة اليه اصعب . لانه يعرف مع السطور الاولى من القصة ، الاطار او العالم الذي اختاره القاص ليحيط احداثه ،وبذلك فقد مقدما التسليم بامكانية وقوع الاحداث « الواقعية » او التي يمكن ان تكون كذلك ..

في « رحلة الى الغد » وهي مسرحية في اربعة فصول اصدرها توفيق الحكيم في نوفمبر ١٩٥٨ ، نجد ان ظاهرة عدم متابعة الادباء في ذلك الوقت لاكتشافات الفضاء ، يعكسه محصولهم الضئيل في كتاباتهم منها . فقوة صاروخ الحكيم اقل من سرعة الضوء (ص٧٦)، ولا يكاد يعرف فناننا عن الصاروخ الا انه اي صاروخ ينطلق الى « الكواكب البعيدة » بلا اي تحديد او تمييز لها ! وهذا التجاهل لدراسة عالم الفضاء يجعل الراكبين يخدران قبل « وضعهما » في الصاروخ وانطلاقه ، حتى لا يصابا بهزات عصبية او نفسية لا يمكن ان تنسى. وكأنها عملية جراحية يجب ان يغيب فيها الوعي لا ان ينشط وينتبه وهذا التباعد عن الروح العلمي يفرض نفسه على احداث المسرحية ذاتها .. حتى ليقول علماء الارض الذين يتابعون انطلاق الصاروخ ، انهم لا يعرفون اتجاه الصاروخ ولا الى اين هو سائر ، ولا الكوكب المحدد الذي يحتمل ان يتجه اليه (ص ٥٤) . واغفال الحقائق العملية او الاستخفاف بقوانينها يسمح بالتالي باخطاء علمية كثيرة تقلل من عملية الاقناع او تفسدها ، كما عرضت مسرحية الحكيم .. كعدم امكان سقوط المرء من الصاروخ في الفضاء « فلا يوجد سقوط حيث لا توجد جاذبية وانما يلتصق المرء لو فعل بالصاروخ (ص ٦٣)، او يجعل راكبي الصاروخ المنطلق يتحركان داخله بحرية تامة كما يتحركان على الارض تماما !(ص ٤٣).

ولعل الكتاب في ذلك الحين كانوا يتخذون من اعمال الفضاء الهية فكهة من مؤلفاتهم يطرفون بها القراء..مما يضفيه الاستخفاف بشخوص الرحلة وانتقائهم مثلا . فالحكيم يختارهم من بين المحكوم عليهم بالاعدام ! لان الهيئة العلمية المختصة رفضت رفضا تاما قبول أحد من المتطوعين العاديين ، فما من هيئة علمية او جهة رسمية ترتكب تحريضا على الانتحار .. او توافق على الاشتراك فيه » .ابحاث الفضاء اذن عملية رهيبة بشعة مميتة ، وليست مجرد مغامرة علمية مطلوبة .. فاصحابها لا يختارون الا من الميئوس من حياتهم . الى هذا المدى يبلغ فقدان الامل منهم . والمحكوم عليه بالاعدام يقبل التطوع للقيام بهذه المهمة رغم ان احتمال العودة ـ وبالتالي يصبح حرا ـ ضعيف ، تفضيلا على موت محقق . والراكب الاول في مسرحيتنا طبيب عالم ، قتل زوجا تحت تأثير دموع الزوجة المضطهدة المسكينة . ثم يتزوج الايم ، ويكتشف بعد ذلك انها استغلته هي وعشيقها المحامي، ولا تلبث ان تشي به . والراكب الثاني ، مهندس . ارتكب اربع جرائم قتل ، ضحياتها مسنات ثريات . كان يتزوج الواحدة ويقتلها ليرثها لحاجته الى المال ، لانجاز مشروع يعود بالخير على عدد كبير من الناس ، كما يقول هو ..

من هذا كله نرى ان توفيق الحكيم لم يعن بعنصر الايهام الذي يجعل من رحلة الفضاء واكتشاف عوالم كونية جديدة ، شيئا واقعيا او يمكن ان يقع ـ يكفي هنا ان نقول ان فناننا لم يتوقف لحظة واحدة ليتساءل عن باعث هذه الرحلة . لقد نسي ان يفعل.

وهكذا بدت الرحلة والاكتشاف.. حدوتة في الزيت ملتوتة. مجرد تخيل ساذج لارض يمكن ان تستوعب قضايا ادبنا الفكرية والفلسفية. لذا لم يكن اهتمام الحكيم ينصب ضمنا على هذا الكوكب المعدني غير المسكون ، الذي يجعل الطاقات الحيوية التي كان يكتسبها من خارجه مباشرة بالاشعاعات الكهربائية » . بل كان محور اهتمامه الاول والاخير ، مناقشة قضية العمل والغد .

واذا كانت « رحلة الغد » لم تمهد لاحداثها غير الطبيعية بالنسبة الى عالم الفضاء ، فان « من اين » رواية فتحي غانم التي جمعت في كتاب في اكتوبر ١٩٥٩ ، قد فعلت . مستخدمة اسلوب الاثارة في الايهام بصدق ما تعرض من احداث غير عادية . فهناك حدث نادر يجب على الجميع ان يهتموا به ، لما له من آثاره البعيدة في حياتنا . هذا الحدث هو زيارة أهل القمر للارض ، الذي اكتشفه صاحبه مصادفة ، وعرضه للشبهات وللاتهام في جريمة وللقبض عليه ثم الافراج عنه اخيرا .. صاحبه الصحفي المعروف بكراهيته لكل الاشياء التي يدخل فيها الخيال ، وخاصة وان عمله مرتبط بالوقائع والحقائق .. بالاخبار . وهذا بالطبع ما يضفي على الحادث اهمية بالغة وخطيرة في نفس الوقت . ويبدأ الرواية بفتاة ذات جمال مفرط في الثامنة عشرة ، تبدو وكأنها احدى اميرات الاسر الحاكمة العربية في بلاد البترول . التقى بها صحافينا وهي تدفع حساب التاكسي .. ورقة مالية من فئة المائة جنيه ، التي ما كاد يراها السائق حتى تملكه الغضب والحقد فأراد ان يجمع حولها الناس ، لولا ان انقذها الصحفي مصطفى حمدي . ولكن فتحي غانم لا يصور علياء ترية فحسب ، بل انسانا من طراز اخر .. فهي لا تعرف كيف تنفذ من الباب ، ولا تعطي لاوراق البنكنوت قيمة اذ لا تزيد عن كونها ورقا ، وفماش فستانها من نوع لا ينسخ ابدا ، وتنظر الى السيارات والمارة بعيون مليئة بالطفولة والدهشة وكأنها تدخل مدينة للملاهي لاول مرة في حياتها . ولا تريد شيئا مطلقا تحت الفستان .. الخ . ويوحي غانم ان علياء من كوكب آخر ، فهي تصر على ان تكون غرفتها في الفندق في الطابق الاعلى وبفزع الا تكون كذلك (ص ١١) .. وتعامل الناس ببساطة وصدق وعفوية .

واذا كان الحكيم والسباعي بعد ذلك ، قد نقلا الانسان الى العالم الجديد . الاول لم يحدده والثاني اسماه . فان فتحي غانم يتخذ قطبا آخر ويجيء بالكوكب وهو هنا القمر او واحدة من بناته الى ارض الانسان للتعرف على أهله . مستغلا ما كان يذاع عن الاطباق الطائرة التي تحضر من الكواكب الاخرى وتزور الارض ـ وحكاية الاطباق الطائرة هذه ، قامت بطريق غير مباشر بالتمهيد للاحداث ، وساعدت كاتبنا بالاقناع في عنصر ايهامه في البداية ـ وهذا يعني ان الكواكب الاخرى اكثر علما وحضارة منا ، فقد سبقتنا احداها الى الزيارة .

ولذا فصاحب « من أين » يصور علياء ابنة القمر عالة بالهندسة تظهر مقدرة فائقة في التعرف على اجهزة الراديو وانواعها وتكوينها ، بعكس جهلها الكبير بالملابس والازياء ، حتى لتطلب من صديقها الصحفي ان يشتري لها ملابسها في تعايشها مع اهل الارض ، حتى الداخلية منها !

ومن الواضح ان فتحي غانم اراح نفسه من اشياء كثيرة بالنسبة الى ما يتطلبه العنصر العلمي .. فعلياء ابنة القمر .. آدمية على نسق البشر بعكس اهل كوكب قمر المريخ عند السباعي ، وهي لا تكاد تختلف في عواطفها وحبها عن سكان الارض . حتى لتنطق بمشاعرهم بدلا من أحاسيس اخرى يجب ان تكون مختلفة لكوكبها .. كم من حب تحرك في قلوبكم تحت اشعته ، كم من احلام انطلقت من ضيائه » . وهذا المنهج الذي اتخذه مؤلفنا ، لم يجعل « من اين » تساهم في خلق قصص يدخل فيه الجانب العلمي ، او يتابع استكشافات الفضاء ، او يتخذ ارضا جديدة حقيقية لادبنا الروائي كما فعل صاحب « لست وحدك » . بل حولها من لون من الخيال الخالص ، فلك من تشكيل كائنات الكواكب الاخرى . وبدت مثل هذه العبارات مثيرة للضحك ..

« نحن ابناء القمر ، اننا نعيش بقلوبنا ، ونفكر بعواطفنا .. هذا هو سرنا ، ولعل سر مبعثه الضوء الذي ينعكس اليكم من بلادنا .. ان هذا الضوء يصل اليكم هينا لينا شاحبا فيبعث في قلوبكم دفء الحب ... كل اختراعاتنا وكل اكتشافاتنا ، التي جعلتنا نسبقكم بمراحل ، ونصل اليكم قبل ان تصلوا الينا ، وننقل ونعرف صورا من حياتكم ، كل هذا وصلت اليه القلوب الكبيرة . (ص ٢٠٧) . او هذا القول .. ان الملائكة يزورونا في القمر بين وقت وآخر ، ويتحدثون معنا ونتحدث معهم . ولكنهم لا يزورونكم ، لانه لو هبط في الارض ملاك ، لقتلتموه لانكم لن تفهموه .. لن تفهموه .. ان تفهموا برأءته .. » .

لم يلتفت فتحي غانم اذن الى ضرورة تطعيم خياله الفني بحقائق اكتشافات الفضاء او الاطباق الطائرة ، فبدا الحديث اقرب الى التسلية الطريفة الساذجة وخاصة في النهاية .. وليس ادل على ذلك من تصويره لعودة علياء الى القمر .. « هبط رجل من رجالنا الى سطح الفندق ، وادلى الي بحبل ، وساعدني على الصعود من النافذة اليه . وركبنا معا دراجة هوائية الى السفينة التي تنتظرنا في السماء » (ص ٢٠٨) .

هذه نظرة سريعة في عملين قديمين تناولا بشكلين مختلفين ، اعمال الفضاء . فماذا قدم التناول الحديث ليوسف السباعي في « لست وحدك » ؟ ..

— ٣ —

لعل قاصنا يرفض ان يكون اكتشاف الفضاء والهبوط على سطح القمر ، مجرد علم خالص لا يتجاوز اصحاب العمل الى غيرهم . فالانسان وراء الهدف والوسيلة .. هذا الانسان العالم والفنان معا . ان احتياجات البشر لا تقتصر على جانب دون آخر .. فهي يجب ان تتكامل .. العلم مع الفكر مع الفن .. في تقدير واحد . ومن هنا جاء اختيار السباعي لاديب شاعر ضمن ركاب الرحلة الفضائية . ولم يات قاصنا بهذا الفنان ليؤكد ضرورة الاحتياجات الانسانية فحسب ، بل ليجعل هذا الاديب الشاعر يعبر بأسلوب آخر غير اسلوب الآلة الصماء عن هذا النجاح البشري المذهل ، الذي يخطه الانسان في مرحلة جديده من تفوقه .. « لقد اقتصرت رحلات الفضاء فيما مضى على التسجيلات الآلية .. من تصوير وتسجيل ووصف ظاهري .. ولكن احدا لم يسجلها بحسه . لم يعرف العالم شيئا عن كل هذه الاشياء الباهرة من خلال فنان .. يمكن ان يرى فيها ما لا يراه غيره .. وينقل الى البشر انفعال الانسان بالعالم الجديد عالم الفضاء الفسيح الباهر الرائع » (ص ٦٩) . وبجانب عبد اللطيف « كان هناك عبد الراضي الساعي في المجلة وسكرتيره الخاص ، وشهيرة مذيعة التلفزيون الذي من اجلها تحمل شاعرنا هول المخاطرة . وتبدأ احداث الرواية والمركبة الفضائية ماضية في اختراقها لاجواز الفضاء — هل يمكن ان نعد هذه الوسيلة الحديثة ، تطويرا لاحلام ابطال السباعي القدامى في الصعود الى السماء ؟ ..

لنذكر مثلا قصة « اذا السماء انشقت » في محاولة الابن اليتيم الصعود الى المدخنة العالية للالتقاء بأمه وابيه في السماء .. — متأثرة بوجودها في منطقة اللاجاذبية . ويعطي تتابع الساعات بعد جرعات الانبهار الاولى ، فسحة للشخصيات في انتظام انفاسها والتفكير في حياتها الاولى ، قبل ان تصعد الى السماء . ومن خلال ذلك تتوالى مشاهد لحيوات هذه الشخصيات ، لا تخرج عن اسار اندفاع المركبة الفضائية . فيعرض القاص لعبد الراضي المزواج ساعي المجلة ، ومزاجه الشعبي واضطرابه بين مشاكل زوجاته . وعبد اللطيف الشاعر الفنان الذي يفتن قلبه الطيب بالجمال ، ويعيش حياة بوهيمية ، وان كان يعرف الحب من طرف واحد . وشهيرة الفتاة المتميزة المثقفة التي فشلت في زواجها ، ثم تعرفت بعبد اللطيف التي احبها وذلل لها كل الصعاب لتصنع منها نجمة مشهورة في الصحافة والتلفزيون . هؤلاء هم ركاب السفينة ، اما طاقمها فيتكون من د . عبدالخبير العالم المشهور ووالد شهيرة ، وعبد القادر قائد السفينة ، وعبد المهيمن مهندسها . ويفرغ امتلاك القدرة عند القائد والمهندس — يبدو بوضوح في هذه الرواية ، ان مؤلفها يقتطع شيئا من تكوين احدى الشخصيات العامة الحقيقية المعروفة ، ويدخله في تركيب شخصياته الروائية ، كما وجدنا في تركيب عبداللطيف بالنسبة الى كامل الشناوي — الانفساح لغريزة التملك والتسلط . فهما يريدان السيطرة على الكوكب كله وحكمه وتعويض ما فاتهما من ذلك على الارض !

وقبل ان تغادر المركبة منطقة اللاجاذبية استعدادا للهبوط على الكوكب ، تتعطل السفينة ويقع الجميع في حيص بيص . وينقسمون الى فريقين ، الاول يحبذ البقاء في السفينة حتى الموت ، امالا ان يتمكن من اصلاح العطب . والفريق الثاني — عبد القادر وعبد المهيمن — يرفض ان يموت داخل المركبة كالجرذان ، ويفضل ان يكون ذلك لو حدث ، وهو خارجها في محاولة للوصول الى الكوكب بأي شكل . ولكن يحدث ان يكتشف د . عبدالخبير ، طبيعة اهل الكوكب الناتية وانهم عبارة عن اشجار . وازاء حب السلطان الذي لا يجد في مثل هذه الطبيعة وسيلة الى الحكم ، يفرضون على الكوكب طبيعة اخرى بشرية ، متوسلين بالشهوات الانسانية من طعام وجنس وطموح ، التي تفرض الصراع الموصل الى تدخل الحاكم . وتكرر البشرية الجديدة خطوات الانسان على الارض واخطاءه ، خطوة خطوة ، حتى تصل الى نفس النتائج المؤسية التي انتهت اليها البشرية في عالمنا في مختلف جوانبه. ورغم فشل تجربة الحكم التي تزعمها قائد السفينة ومهندسها ، الا انهما لم يرعويا عن التفكير في السلطة .. ويقرران الخروج من المركبة الفضائية الى الكوكب قبل ان يفرغ الطعام ويموتا جوعا . اما بقية الجماعة فتستسلم لمصيرها داخلها . ولكن بقيه من امل وارادة تجعلها تستجمع قواها المبعثرة لتقوم بمحاوله اخيرة لتسيير المركبة .وتنجح وازاء الحروب على الكواكب والوان الاستعمار والتسلط والخطايا التي استشرت ، تعمل جماعة المركبة على التكفير عن اخطائها في تغييرطبيعة اهل الكوكب ، فتعيده الى طبيعته الاولى ثانية . يحدث هذا بينما قائد السفينة ومهندسها يهبطان سالمين على سطح الكوكب متوترين بأحلام السيطرة والحكم ، فينطبق عليهما قانون التغيير ويتحولان الى شجرتين ! وتقلع المركبة عائدة الى الارض ..

هذا هو هيكل الرواية . فكيف جسدها السباعي كائنا حيا منطلقا ؟

— ٤ —

اكثر من مضمون تحمله « لست وحدك » .. تكامل العالم او العوالم .. فالارض ليست مركز الكون والانسان ليس وحده على الارض .. الوقوف الحائر امام سر الحياة .. التآلف البشري وهموم العصر، فما اضأل ما يقدمه الانسان لاخوته في الانسانية . فلنعايش بعض هذه المضامين كما بلورتها خاتمة الرواية ، من خلال موقفين دالين. الاول موقف جماعة السفينة من رفض المساس باعادة اناس الكوكب الى طبيعتهم النباتية الاولى ، رغم ايذاء هذا الوضع لقائد السفينة ومهندسها ، كما مر بنا . فهذا الموقف يعكس ارتياحا للتخلص من ممثلي روح العدوان والتسلط ، اللذين كانا يسيران السفينة بمفاهيمهما الاستبدادية ، بغض النظر عن تعبيرها لمبادىء جمهور المركبة. كما يعكس ايثار السلام واسقاطه على الغير بدلا من تلمس الرغبات الاستعمارية . والموقف الثامن الذي يقدم رفض اصحاب المركبة بعد ان اصلحوها ، اتمام الرحلة الفضائية والاصرار على العودة الى الارض .. كان في الحقيقة مواجهة نفسية . لقد اكتشفوا ان ما

يتجشم من جهد وما يقاسي في سبيل الاعمال الفضائية ، يمكن ان يبذل اولا لتعويض كل الوان النقص التي يشكو منها اهل الارض . ولكن ما فائدة هذه الرحلة اذن ؟.. تجربتها ماذا نسوي ؟ ماذا تعلمنا منها.. « .. اننا لسنا وحدنا .. في كون متعدد الجوانب .. والعناصر.. والمركبات . انما الله الاحد في كون مركب معقد . ونحن مسئولون عن ارضنا .. عن حياتنا .. بقوة مركباتنا .. الذهنية والنفسية والبدنية .. مسئولون عن تشكيل حياتنا كوحدة بشرية تمنحنا الافضل دائما .. العودة الى الارض ، من اجل ملايين التعساء الذين يعانون من الجوع والمرض والخوف ، على ظهر الارض ، في وقت نجح فيه الانسان في الانطلاق الى الفضاء والوصول الى القمر ». ويبدو ان هذا الموقف الذي يقفه الروائي يوسف السباعي من اكتشافات العلم في دنيا الفضاء ، هو موقف كل فنان حقيقي يستشعر آلام الانسانية واحلامها ... فالشاعر محمود امين العالم يقول في ديوانه « اغنية الانسان » !

أنا احني قامتي الانسانية للانسان فخرا ،
للانسان ارتفع بسهمه ،
يغزو الاكوان بعلمه ،
ما أمجد .. ما أمجد ،
ما أرفع .. ما أروع ،
لكني .. لن اهتف بشرى ،
وانا أبصر فوق الارض ، وتحت الارض ،
عيونا تغمض قسرا ،
تغمض قهرا ،

لا تملك ان تبصر هذا المجد ،
لا تملك ان تستشعر هذا المجد ،
الا ملحمة هزلية !
أنا أرفض ان أعلو في رحلة مجد صامت ،
فوق الفقراء ،

ارفض ان اسبح في أنهار شقاء ،
كي ابلغ مرفأ صمت الاشياء .
ارفض ان اركب ظهر القمر الصامت ،
ان اتخفف من اوزاني من احزاني الانسانية ،
في الافضية الوهمية

.. فالرحلة للقمر الصامت لن تصبح مجدي ابدا .
لن تصبح لي مجد

٥

ويسخر فاصنا من الانسان حين نشط به السبل ويتجاوز امكانياته وحدوده .. فيريد ان يسيطر على الكون بدعوى خلق الكائنات خلقا جديدا ، مصورا ذلك في « لست وحدك » باستخدام البعدين الواقعي والرمزي ،في محاولة طاقم المركبة الفضائية وكأنهم آلهة ، تغيير طبيعة اهل قمر المريخ النباتية الى بشرية ، باضفاء صفات البشر الاساسية عليهم . وفي نفس هذا الوقت الذي يزعم فيه الانسان مثل هذه الدعاوي العريضة ، يصيبه الارتباك ويتخاذل اذا وضع ما يدعي من قوة موضع الامتحان ، حتى لو كان امتحانا ضئيلا مثل حاجة اهل الكوكب الحفاة الى احذية .. لقد فشل الآلهة او طاقم السفينة في حل هذه العقدة ، وخاصة ان المقاس سيتغير كل ساعة بحسبان ساعة زمنية ارضية لكل سنة في الكوكب !

.. « معقول ان لا تترك الرعية حافية بلا حذاء . ومعقول ان تضيق بهم الاحذية . ولكن ان يغيروا الحذاء كل ساعة .. امر غير معقول . ولم يكن من المعقول ايضا ان ترتبك الآلهة في اول مشكلة تتعرض لها رغم ما بها من تفاهة . فالمفروض ان تبدأ الحكم بمشاكل اعوص .. بحيث تبدو هيئة الحكم معذورة اذا عجزت عن حلها . اما ان تحتار في احذية الرعية .. فهذا امر غير مشرف للهيئة »! (ص٢٩٥).

واذا كان السباعي قد اعتمد في اقامة هيكل رحلته الفضائية على احدث النظريات العلمية ، وما أسفر عنه نزول الانسان على سطح القمر ، بعد هضم هذه النظريات وتطبيقاتها تماما ، من ناحية اخرى ، أرسى روايته على ارضية انسانية تتصل بالتكوين البشري اوثق اتصال . سواء في صيغة العامة او الخاصة . ففي الجانب الاول نجد ان هذه الرحلة الفضائية تاج التآلف العالمي لاعمال الفضاء ، بعد ان شيدت قاعدة عالمية كبرى مشتركة تنطلق منها الزيارات خارج الارض .. مما يعني وضع ابحاث الفضاء في خدمة الانسان في كل بقاع العالم . اما الصيغة الخاصة ، واعني بها الداخلة في نسيج الاحداث والشخوص ، فهي تنبثق من غلبة التعاطف الانساني على هذه الاحداث والشخصيات ، واستشعاره قويا حيا . فالصلة بين الارض ومن وما عليها ليست واهية او مستحدثة ، فهي تضرب بجذورها الى اعمق الاعماق ومن الازل . هذه الصلة التي يسميها الحكيم في « رحلة الى الغد » .. الجنسية الارضية الآدمية .. كيف نريد ان تقنعني انها الفيت ؟ وما الذي الغاها ؟ بعدنا عن الارض؟ انها ليست في الارض .. انها هنا .. معنا في هذا الصاروخ .. لانها هنا بين جدران الصدر » (ص ٦٦) . ولنقرأ هذا الحوار الذي يستوعب قضيتنا في « لست وحدك » والمركبة الفضائية تقترب من قمرها المريخي ..

ـ ما زلت تتحدث كانسان على الارض

ـ وهل غيّر البعد عنها تركيبنا ؟

ـ لا اظن .

وهذا كله يسوقنا الى الجانب الاخر .. الجانب المتناقض او الشرير في الانسان . ولذا فلم تسلم منه السفينة الفضائية ، فمع عبارة عبداللطيف المتسائلة السابقة والنافية عن امكانية تغيير البعد عن الارض للتركيب البشري (ص ٢٣)، فهناك ايضا ما يساور عبدالمهيمن قائد السفينة وعبدالقادر مهندسها ، من افكار عدوانية تحلم بالسيطرة على الارض الجديدة ! وهذا الموقف بمطبيه يعكس ايضا تناقضا مع باعث قيام مثل هذه الرحلة الكونية .. باعث التضامن العالمي في أعمال الفضاء من اجل السلام ! واغلب الظن ان السباعي لم يرد من تصويره لهذا الجانب في شخوص المركبة الفضائية ، ان يسجل متناقضات الانسان فحسب ،بل وان يعالج تحول العلم من اداة بناء الى أداة تدمير . ينافش فناننا هذه القضية من خلال شخصية العالم الدكتور عبدالخبير .. ان الحقائق لا يمكن ان تكون لها قيمة في حد ذاتها ان لم تضف شيئا جديدا الى حياة الانسان. الحقائق ليست تحفا ولا ادوات زينة .. يستخدمها الانسان لوضعها في فاترينات التاريخ .. وانما يستفيد منها في تحقيق مزيد من الرخاء والسعادة . والسؤال الذي يتمرد في هذا الموضع هو ، ماذا يستطيع كاشف الحقيقة ان يفعل ؟ ايحجبها حتى لا تتحول الى اداة تدمير؟ والجواب الذي يشمل الواقع والتصوف معا . .« .. اذا كانت اساءة استعمال الحقيقة « جريمة فحجبها جريمة اكبر . وليس على كاشف الحقيقة سوى ان يطلقها ، ولتتصارع في استعمالها قوى الشر والخير .. ويبقى مصير الانسان معلقا في ايهما تنتصر في استعمالها » (ص ٢٣٣). لذا فعالم روايتنا ليس مسئولا عن تحول جهاز اطلاق الغاز السام ، او جهاز الجراثيم ، او الشعاع الصاعق، الى اجهزة الموت في ايدي مغامرين يريدان ان يصبح اكتشاف الفضاء، عملية غزو وسيطرة !

٦

وفي دراسة بعض الجوانب في « لست وحدك » لا يجعلنا نتخفف من الالتفات الى العالم الشجري الذي رسمه يوسف السباعي . واذا كان القارىء العادي ، اعجب فيه ببراعة التخيل ودفة السبك وقوة التجسيد ، فانه ليختفي وراء ذلك شيء اصيل يشارك ـ مهما كان حجم هذه المشاركة ـ في ابناء اعمال قاصنا .. وهو احتفال كبير بدنيا النبات .. علما وفنا وحياة .. مما لا نجده عند اديب مصري اخر . وفي هذه الرواية انعكاس لهذا الاهتمام . فعندما اراد ان يصور الكائنات التي تعيش على احد أقمار المريخ ، لم يجد الا النبات يشكل منه اهل هذا الكوكب . ولعل اختيار هذا الشكل يجيء اقرب الى تطبيق القوانين العلمية منه الى الخيال فاذا كان هناك النباتات المتحجرة ، فلماذا لا توجد الكائنات المتشجرة ؟!

ان اهتمام القصاص بالنبات ، قديم جدا نجده في اساطير الفدماء وحواديث الف ليلة وليلة . فما اكثر هذه الحكايات التي يتحول فيها الانسان الى حيوان او نبات او جماد بواسطة السحرة . ويبلغ الامر أن تقيم هذه الحكايات عالما باسره من النبات على هيئة البشر ، كما في جزائر واق الواق مثلا . وحتى في هذا الزمن المبكر، كان الناس والقصاص يرون في عملية التحول هذه من الادمية الى النبات او الحيوان ، لونا من تناسخ الارواح الذي يرمي ، الى توكيد الحياة واستمرارها على الارض . لقد كانت المفاهيم السحيقة تضفي على عالم النبات حياة لا تختلف عما يضم البشر . فقد كان هناك الاعتقاد بان للنبات ـ كما للحيوان والجماد ـ روحا او نفسا ، وان هذه النفس كما يقول احمد رشدي صالح، هي علة نموه وحركته وردود افعاله ، وليس علة ذلك كله ، فواه العضلية اوالمادية. وعن الروح بين الانسان والنبات ، يقول الكزاندر هجرتي كراب في كتابه « علم الفولكلور » مفسرا .. حكاية ان الاشجار تعمر طويلا وان سائر النباتات تخضر اثناء نموها ، وان الانسان يفنى والشجرة تبقى . كانت الاساس الذي قام عليه الظن بأن الانسان ينحدر من الاشجار او انه مخلوق منها . وهو ظن كان موجودا في بلاد الاغريق القديمة وفي جزيرة ايسلنده اثناء عصورها الاولى ، بل ما زال باقيا هناك حتى اليوم . (ص ٣٦٧) . عالم النبات اذن لم يجيء به السباعي كشيء طريف يداعب به القارىء ويسليه ، وانما هو تاريخ وماض ومفهوم شعبي ، واكثر من ذلك يشارك في بلورة نظرة متكاملة الى الانسان والكون . وعلى هذا النحو لم يكن استخدام قاصنا للنبات هامشيا ، بل كشخصية رئيسية في الرواية تبرز وجود العوالم الاخرى البسيطة الخيرة التي يسعها الكون بجانب عالم الانسان. كما نكشف ايضا ما تتعرض له الاشياء النظيفة من تلويث اصحاب المطامع مثل قائد السفينة ومهندسها . وهذه صورة يقدمها يوسف السباعي للعالم النباتي الذي وجده ركاب الباخرة الفضائية ..

شعب بلا مشاكل .. يضرب جذوره في الارض ليتناول طعامه بغير عناء ويمد فروعه في الهواء ليلتقط شهيقه بلا مشقة . غذاؤه في الارض المنبسطة تتوافر لكل طالب . وانفاسه من الهواء الفسيح لا تحدها حوائل .. شعب بغير اطماع في عالم ليس به ما يثير الخلافات والاحقاد . حتى الجنس عنده ـ مشكلة المشاكل ـ واسس الذنوب .. لا يسبب له اية مشكلة ، انه شيء لا وجود له ولا حاجة اليه .. يحمل النسيم حبوب اللقاح من الذكر الى الانثى ..فتتلقاها .... بلا حياء ولا عيب لتخصب وتنجب .. وتلقي بذورها في الارض لتمتلىء ذرية ...

٧

وبجانب مضمون السباعي وتكتيكه ، فهناك ايضا اسلوبه الذي يحتاج الى دراسة طويلة نجتزيء ببعض جوانبها هنا . واول سمات هذا الاسلوب ، هو روح مضيئة تتمشى في عصب الكلمات . وهذه الروح التي يفترف صاحبها من منهلها ، تتشكل من مرح وتفاؤل وحب للانسان . ولذلك فان القتامة لا تلحق بما يكتب قاصنا غالبا ، حتى والمأساة تبلغ ذروتها . فهناك دائما شيء ما يمنع السواد الحالك اذا دعا الموقف اليه ، من ان ينطبق تماما . لا ندهش اذن لمعاداة يوسف السباعي للادب الاسود ـ ليس مضمونا فحسب بل اسلوبا ايضا ـ والى هذه الروح ترجع بعض اسباب هذه العلاقة الوثيقة التي تربط بين السباعي وقارئه . فالصداقة التي يكنها الاخير لكاتبه ، تنبع مما يجد في هذه الروح من رحابة تأخذ بيد الانسان ولا توصد الابواب امام نسمة امل ، مهما تقسو الحياة . ولذا فهي سند وملاذ ، بما تتفجر منها من الدعوة الى الحياة وحبها والرنو الى غد ابهج . واداة قاصنا الى هذه الاسلوب ،هي .. المزاج الشعبي. وهذا المزاج يعكس في المقام الاول تكوين يوسف السباعي نفسه ، انه ليس عنصرا طارئا على حياته ، يمكن له ان يزول او يبهت اثره ، ولكنه اصيل يستوعب كيانه. نلمحه في بواكير اعماله واحدثها ايضا . وهذه الاصالة لا تجعله محدود الخطو يقتصر في رسم مواقفه مثلا على لون واحد ،بل ان الوانه تتعدد تبعا للعناصر التي تشكله وتدخل في افرازه . ولنتمثل بهذا المشهد السريع الذي يصور فيه قاصنا ، مجيء زوج عبدالراضي اليه في عمله تجبهه بمعرفتها بزواجه الجديد . .السادس !

فتصوير السباعي لحضور ام عبده ، يستحضر المفهوم العامي « لاجراء التحقيق » ـ كنوع من استلهام الطبقات الشعبية لاشكال تستخدمها الطبقة العالية المتعلمة ـ عن الزيجة الجديدة . وهي تبدأه .. بصرخة في فناء المجلة . تقوم بدور الحاجب في المحكمة .

ـ عبدالراضي .

النداء الصارخ بمثابة مغنطيس جاذب يعمل على افقاد الضحية مقاومتها ، كنوع من التنويم الذي تمارسه الحيوانات والزواحف ايضا . كما يجذب كذلك الجمهور الذي لا تتم اللعبة الا به . واختيار التوقيت لم يأت عبثا . فالمسرح يجب ان يغص بالمتفرجين ، فالوقت قبل الضحى والمحررون قد اخذوا في التوافد على دار المجلة . واللمسة الثالثة ناقدة كما لا تخلو التعابير الشعبية ..

ـ ماذا تريدين ياولية ؟

وبطلقة مباشرة انفجرت في وجهه ..

ـ انت اتجوزت ياعبدالراضي ؟

ـ من قال هذا الكلام الفارغ ؟

ـ يعني لم تتزوج ؟

ـ ولماذا اتزوج .. اينقصني الهموالنكد ؟

ولم يكتمل المشهد الوانا .. فهناك مفهوم اولاد البلد في الطبقة الكادحة ، في اهمية الاشياء القليلة التي يمتلكونها ، والتي يضفون عليها اهمية كبرى . وتكون اللمسة الرابعة .. « وكان الراديو معلقا في عنق عبدالراضي ،فمدت ام عبده يدها وجذبت الراديو فخلعته من عنقه قائلة :

ـ اذن هات الراديو . اذهب وابحث عمن ترضى بزواجك .وكان الراديو في نظر ام عبده هو اهم وسائل الاغراء في عبدالراضي » (ص ٤٦).

علاءالدين وحيد